جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي

(الدورة الثــامنة)

تأملات شخصية:

أهمية معايشة "المكان" لفهم الثقافة العربية

د. نيل هوكنز

كتبتُ حتى أقيم جسراً بيني وبين بيئةٍ افتقدتُها

تأملات شخصية: أهمية معايشة "المكان" لفهم الثقافة العربية

هل وصلت إلى مطار القاهرة مساء يوم من أيام شهر أغسطس ١٩٨٣ ، وكنت قد أكملت عامين دراسيين بقسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة إكستر في إنجلترا، درست خلالهما الشعر والمسرح والأدب والتاريخ العربي، فضلا عن اللغة وفلسفة الشرق الأوسط. وكنت تعلمت عن امرؤ القيس والمتنبي وتوفيق الحكيم والطيب صالح. واعتقدت أن لدي فهم للثقافة العربية إلى حد ما.

وبعد أن جمعت حقائبي وحصلت على سيارة أجرة، قلت للسائق ما كنت أحسبه لغة عربية فصيحة "مساء الخير، أريد أن أذهب إلى زمالك". بدا السائق مرتبكا ولكنه ضحك وردّ عليّ قائلا ا "عايز تروح زمالك؟ ". لم أفهم ما قاله فشعرت بالغضب والإحباط لأنني كنت قد درست العربية على مدار عامين، ومع ذلك فقد عجزت عن إجراء حوار بسيط مع سائق سيارة أجرة.

وكانت المشكلة في أنني درست الأدب والتاريخ ولكني لم أكن قد عايشت المكان واحت ك ك ت به.

وسأناقش اليوم أهمية فهم مغزى المكان. و ح جتي هنا أن الصداقات الشخصية والملاحظات المباشرة وحب الاستطلاع لا تزال لهم جميعا نفس القدر من الأهمية التي كانت لهم في عصر عبد الرحمن ابن خلدون أو محمد ابن بطوطة. فليس هناك بديل للمعايشة ولا للتجارب الشخصية، لا سيما بالنسبة للدبلوماسيين.

وأردت لورقتي هذه أن تكون أيضا نداء في عصر التكنولوجيا الرقمية هذا إلى خوض التجربة الحياتية والتعرف على البلدان بشكل مباشر، إلى جانب السعي إلى بناء العلاقات والمعارف الشخصية، بدلا من استخدام القنوات الرقمية مثل غوغل وويكبيديا وغيرهما. وبالرغم من إمكانية اكتساب المعارف عن طريق هذه المواقع الإلكترونية، إلا أنه لا سبيل إلى بلوغ الحكمة إلا بخوض التجربة الحياتية العملية في المكان والمشاركة الفعالة في أنشطة الحياة.

ولكوني أجنبيا، بل دبلوماسيا على وجه الخصوص، فليس كافيا أن أقرأ عن مكان أو ثقافة بعينها فحسب. فلا غنى عن معايشة المكان في واقعه الملموس. وهذا ما يستحيل تحقيقه بمجرد الإقامة في أحد الفنادق الخمسة نجوم في العاصمة، وإنما يتطلب السفر عبر أنحاء البلد ومقابلة الناس والاستماع إلى قصصهم وملاحظة عاداتهم وتقاليدهم وقراءة أدبهم وزيارة صحاريهم وجبالهم وأنهارهم وقراهم لكي يكون لك تص ور عن نظرة هذا البلد أو هذه الثقافة إلى نفسها، ومن ثم إدراك جوهر الأمكنة، بل روحها.

ملاحظات شخصية

ولطالما كان لأدب المكان دور هام في حياتي. فعندما كنت أبحث عن وظيفتي الأولى وكنت قد حصلت لتوي على شهادة تؤهلني للعمل مدرّ س اا للغة الإنجليزية، بدأت قراءة رواية من تأليف الكاتب الإنجليزي لورانس دريل "رباعية الإسكندرية" . وأعجبت بتلك الرواية ووصفها للمدينة ذاتها (بالرغم من أن أحداث الرواية كانت قد جرت في عشرينات وثلاثينات القرن الماضي). وبدافعٍ من الرواية وسحرها قررت الانتقال للعمل كمدرس عقب انتهائي من قراءتها. وبالطبع كانت الإسكندرية قد شهدت تغيرات جذرية، غير أنه كان لا يزال بإمكاني تتبع آثر بعض الأماكن التي زارتها تلك الشخصيات الروائية، وح سست روح تلك المدينة العظيمة.

وكانت للعلاقة بين المكان وما يتصل به من أدب وثقافة أثر عظيم على حياتي في مرحلة طفولتي. فقد كان والدي يعمل لدى الأمم المتحدة في رام الله، التي كانت حينها جزءا من الأردن. وكنت تلميذا في مدرسة بمدينة القدس القديمة، التي كنت اتنسّ م فيها عبق التاريخ وتحيط بي من كل جانب مختلف الأديان والثقافات. وما زلت أذكر كيف كنت أركض مع أصدقائي في جميع أنحاء المدينة وكيف كنا نتوقف لنشتري ساندوتش الحمص أو الفلافل وكيف كان السوق يعبق بروائح الكمون والنعناع والبن ورائحة الخبز الطازج أيضا. وإلى الآن ما زلت أشعر بارتياح في معظم الأسواق الشعبية في الشرق الأوسط.

وسرعان ما تعرفت على ذلك الشعور القوي بالأرض وما تثيره من نزاعات عاطفية. ولذا اضطررنا عام ١٩٦٧ إلى مغادرة القدس سريعاا إلى بيروت مع تزايد دوي طبول الحرب حينها. وفي السبعينيات عشنا لبعض الوقت في لبنان أثناء الحرب الأهلية قبل إجلائنا منها.

ولا أزال أتذكر تلك النظرة القلقة على وجه أمي حين حضرت مجموعة من الجنود السوريين المدججين بالسلاح إلى منزلنا وطرقوا باب بيتنا فجأة. لم نكن ندري ما نفعل ولكن فتحنا لهم الباب في النهاية. ولفرط دهشتنا فقد سألنا أحد الجنود الشباب ما إذا كنا سنأخذ الكرة وأخرج أنا وأخي لنلعب معهم كرة القدم قليلا. هكذا هو الشرق الأوسط، يأتيك بالمفاجآت من حيث لا تدري!

وبالنسبة لي، فكلما زرت مزيد اا من الأماكن في الشرق الأوسط، كلما ازداد فهمي للمؤلفات الأدبية التي درسناها في الجامعة. وقد رأيت بأمّ عيني تأثير الشعر على العرب ومدى اختلافه عن قراءته في صفوف الدراسة.

ويحظى أدب المكان بأهمية عظيمة لدى الفلسطينيين. وبالرغم من أنني كنت قد درست قصائد محمود درويش، فإنني لم أدرك حقا قوة الشعر وتأثيره على الكثير من الفلسطينيين إلا حين حضرت جلسة قراءة شعرية للشاعر الفلسطيني معين بسيسو في لندن.

فخلاف اا لقراءات الشعر الهادئة "الباردة" التي اعتدت عليها، صفق الجمهور الذي استمع لشعر بسيسو وهلل بل شارك في ترديد بعض الأبيات معه. وقد ترك ذلك الشغف والحماسة انطباعا عميقا ف ي ذاك اليوم. فللاستماع إلى المؤلفات الأدبية عند بعض الناس القدرة على إعادة تشكيل المكان حتى وإن لم يكن الكثير منهم قد عاشوا في ذلك المكان أو زاروه.

وأذكر أيضا كم أمضيت من الوقت في ترجمة شعر امرؤ القيس كلمة بكلمة أو سطرا بسطر. فقد كانت عملية مجهدة وطويلة للغاية إلا أنني لم أفهم النتيجة رغم عدد الساعات والجهد الذي بذلته. على سبيل المثال:

قفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللِّوى بي ن الد خول ف ح وملِ

مِ كرٍّ مِف رٍّ مقبِلٍ مدبِرٍ معاا ك جلمودِ صخرٍ ح طه ال سي ل مِن علِ

وعانيت كثيرا لأتخيل الشاعر محاولا تعق ب آثار المضارب التي مكث فيها في الصحراء، ليستعيد ذكريات أشخاص ونساء كان قد التقاهم. ولم يكن بوسعي تخ ي ل المكان ولا فهم مضمون قصيدته.

وينطبق الأمر نفسه على محاولتي ترجمة قصائد عمرو ابن أبي ربيعة التي يتحدث فيها عن الحب والصحراء ومحاولتي فهم معناها.

ولكني ذهبت في عام ٢٠١٢ حين كنت أعمل في الرياض، في رحلة استمرت لتسعة أيام في الربع الخالي مع ابني عبد الله بن خميس، أحد أبرز الشخصيات الأدبية والمثقفين السعوديين، هما محمد وعدي. وقطعنا خلالها عدة آلاف من الكيلومترات في خمس سيارات. وفي أثناء رحلتنا كانوا يرددون أبياتا من الذاكرة من أشعار شهيرة ذات صلة بالمكان، منها ما يعود إلى امرؤ القيس وعمرو ابن أبي ربيعة. وتعلمت منهما مفردات جديدة تصف الأشجار والنباتات مبينة ا استخداماتها ودالةا على الأسماء المختلفة لخصائص الصحراء.

وكانوا قد جلبوا معهم بعض كلاب السلوقي التي كانت تصطاد لنا الأرانب بالطريقة التقليدية. وشعرت بالرمال تلطم على وجهي وأكلت الكثير من "الكبسة" ووجدت أدلة تشير على وجود

مضارب أثناء مرورنا بالكثبان الرملية (العروق). وعندها سمعت قصف رياح الصحراء وروحها وهِ م ت في ترامي أطرافها الشاسعة.

وشربنا القهوة معا عند الفجر وأدركت حينها معنى الحرص على عدم إهدار الماء. كما أحسسنا بحرّ النهار وشهدنا بزوغ القمر وروينا القصص بينما كنا نجلس حول النار في المساء. وكنا نحتمي وراء عِنّة - وهو حاجز مبني من شجيرات وعصي حول النار لمنع وصول الرمال إليه ولكن دون أن يحجب عنا النسيم.

فكان لي شرف التعرف على الثقافة السعودية، فضلا عن تمكيني من إدراك قيمة الشعر الذي كنت قد جهد ت كثيرا لفهمه أثناء دراستي بالجامعة منذ ما يربو على ثلاثين عاما.

وقررت مؤخرا أن أعيد قراءة رواية موسم الهجرة إلى الشمال، وسرّ ني أنني قد شغفت أكثر بالرواية نتيجة لحياتي وعملي على ضفاف النيل. وكنت قد عملت مرشدا سياحيا في أواخر الثمانينات حيث كنت أقضي خمسة أيام على فلوكا من أسوان إلى الأقصر.

واعتدنا النوم ليلا على سطح الفلوكة تحت النجوم. واستمعنا لصوت ارتطام عصي الصيادين بالمياه وهم يحاولون مطاردة الأسماك للإيقاع بها في شباكهم الخاوية. وتتناهى إلى أسماعنا أيضا أصوات حيوانات المزرعة، وصوت حمار ينهق أحيانا، والرياح تقصف أشجار النخيل. بذا، تجسد لي المشهد على الفور حين قرأت كلمات الطيب صالح عن وصف قريته في المساء.

وإذ نتحدث عن أدب المكان، للنيل مكانة وأهمية خاصة بالنسبة لي شخصيا، ليس فقط لما بينه وبين اسمي من تشابه. فقد قضيت أياما كثيرة مسافرا على متن الفلوكة مع البحارة النوبيين والمصريين. بل كنت أسبح في النيل وأشرب الشاي المصنوع بمياهه.

وتحسنت لغتي العربية واغتنت بمفردات وتعابير كثيرة وإن كنت لا أفضل استخدامها بصفتي دبلوماسيا! وتعلمت عبارات مفيدة من العامية مثل "عزومة مراكبية" التي شكلت إضافة مفيدة لحياتي الدبلوماسية. وتعلمت بعض العبارات النوبية واكتشفت مدى ثراء ثقافتهم وتاريخهم. وقضيت العديد من الأمسيات جالسا حول النار في مخيم على ضفاف النيل مستمعا للموسيقى والأغاني النوبية الرائعة إلى وقت متأخر من الليل.

وربما يكمن السبب الرئيسي وراء تعلقي بالنيل في مقابلة زوجتي للمرة الأولى في أسوان وهي أسترالية أيضا ولكنها كانت تعمل مرشدة سياحية لدى نفس الشركة التي كنت أعمل فيها. وما

أروع أن تمكنا من الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لزواجنا على ضفاف النيل في أسوان. ولذا، فإن للنيل أهمية خاصة بالنسبة لنا.

ومن شأن الطريقة التي يتعرف بها الأشخاص على الأمكنة أن تشكّل آراءهم أيضا. بل إن من شأن معايشة المكان في وقت مبكر قد يؤدي إلى تصور مختلف عن الواقع الحالي. وعلى سبيل المثال، فإذا ما ذكرت اسم غزة، سيتصور معظم الناس مكانا شديد الزحام والفقر ويعاني الكثير من القسوة والصعاب.

لكن وبما أنني قد أمضيت أوقاتا هناك أثناء عطلتي الدراسية عندما كنت صبيا في بداية عقد الثمانينيات، فما زلت لدي بعض الذكريات المبهجة عن سنواتي المبكرة في غزة. وما زلت أذكر تلك "الشلة" من أصدقائي الفلسطينيين الذين يلتقون كل يوم لأجل الدردشة وارتشاف القهوة ولعب كرة المضرب والتلذذ بشواء اللحم وسط البيارات العابقة بنفحات رحيق البرتقال.

وكنت حينها اركب دراجتي في تلك الشوارع الهادئة المؤدية إلى مدرسة غزة الصيفية للأطفال حيث كنت أعمل متطوعا هناك. وكنت أذهب معهم إلى الشاطئ للتمتع بالسباحة في تلك المياه الصافية في الصباح الباكر. وما أسعدني بالعمل مع أولئك الأطفال أن لغتي العربية كانت حينها في مستواهم لا أكثر.

وعلى الرغم من الواقع الحالي في غزة، ما زلت لي ذكريات محببة إلى نفسي عن أصدقائي وتجاربي معهم هناك. غير أني شهدت أيضا -وبعميق الحزن- الصعوبات التي عانى منها مواطنو غزة. فقد عملت مع الأمم المتحدة في منتصف عقد التسعينيات لدى عودة الرئيس ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكان دورنا أن نساعد في تنفيذ عملية السلام. كانت الآمال كبيرة في إمكانية إبرام صفقة سلام في تلك الأيام، إلا أنها أحبطت للأسف.

ملاحظات مهنية

إن معايشة المكان وتف هممه ومعرفة أدبه وثقافته مما يتعين على كل من يعمل في بلد أجنبي فعله، لا سيما بالنسبة للدبلوماسيين. ولكي يكون الدبلوماسي فعالا فإن عليه أن يكون قادرا على النظر إلى المشاكل والأوضاع من وجهة نظر الطرف الآخر.

لذا، فقد كانت أهمية تف هم الطريقة التي يمكن أن يفسر بها الآخرون أحداثا متماثلة ولكن من منظور آخر، إحدى أهم الدروس المفيدة التي تعلمتها في الجامعة أثناء دراستي لتاريخ الحروب الصليبية. وكان أحد الكتب المفضلة بالنسبة لي قد نظر في ردة فعل الشعوب العربية إزاء وصول الصليبيين والمعارك اللاحقة التي خاضوها. ويتضمن ذلك الكتاب معلومات من كتابات المؤرخين من أمثال ابن الأثير وابن جبير وابن القلانسي، والأمير الدبلوماسي والمؤرخ أسامة ابن منقذ.

وكانت ردود فعل العرب إزاء وصول الصليبيين مثيرة للاهتمام، حيث عل ق حينها المؤرخون على اختلاف تقاليد الصليبيين وعاداتهم وقيمهم وأخلاقهم (لا سيما طريقة معاملتهم للنساء). وكتبوا أيضا عن تصرفات الوافدين الجدد مثل إطالة الشعر وعدم استحمامهم كثيرا. على أن المؤرخين العرب قد ذهلوا أيضا لمعرفة الصليبيين المحدودة في مجالي الطب والعلوم.

ومن المثير للاهتمام أنه بقدر ما امتدت إقامة الصليبيين في المنطقة، بقدر ما تأقلموا على عادات وتصرفات رصفائهم العرب. وكان من خطأ الصليبيين الذين وصلوا مؤخرا أنهم لم يهتموا لنصيحة أولئك الذين أقاموا في المنطقة لسنوات أطول، فقرروا مواجهة صلاح الدين وخسروا.

وقد تعلّم ت من ملاحظات أولئك المؤرخين وآرائهم أهمية السعي إلى البحث عن آراء الآخرين وتكريس ما يكفي من الوقت لفهم المنطق والحجج التي يستند إليه موقف أي شخص أو جماعة ما.

وهذا أمر بالغ الأهمية حين يتعين على الدبلوماسي إقناع الطرف الآخر بتغيير رأيه أو موقفه إزاء مسألة ما، أو لكسب تأييده في أمر هام يتعلق بالسياسات. ولكي يتمكن الدبلوماسي من فعل ذلك، فلا بد من تف هم الحالة الذهنية لأولئك الأشخاص الذين يسعى لإقناعهم.

ومما يساعد الدبلوماسي كثيرا على ذلك، مدى فهمه لثقافة الطرف الآخر ووضعه، علاوة على إدراك القيود المفروضة عليه. وإن من فضل الاحساس بالمكان والالمام بتاريخ ذلك البلد وشعبه وآدابه، أنها تّسهل كثيرا على الدبلوماسي تحديد الجوانب المشتركة بين الأطراف المتباينة، ما يساعد بدوره على حل المسائل المختلف عليها.

ويساعد التحدث بلسان أهل البلد كثيرا في بناء جسور الثقة والعلاقات، لا سيما في المفاوضات. غير أن ما يساعد أكثر في بناء الثقة وتعميقها أن يشعر محاوروك بأن لديك اهتماما حقيقيا ببلدهم وتاريخه، وأن بك شغفا وتعاطفا محسوسا مع بلدهم أو مدينتهم. لذا فإن فهم المكان أمر أساسي لكل دبلوماسي.

وقد تعلّمت العديد من الدروس خلال مهنتي، وأريد أن أذكر أربعة منها. أولها القدرة على الاستماع والملاحظة. إذ ما أسهل على المرء أن يصل إلى بلد وهو حامل للتصورات والآراء والأفكار والتحيزات المسبقة. إلا أن من شأن زيارة المسؤولين والالتقاء بهم، إلى جانب الصحفيين والأكاديميين والشخصيات الدينية وأصحاب المحال التجارية وسائقي سيارات الأجرة وغيرهم من عامة الناس أن يساعد كثيرا في تف هم المكان ومعرفة الناس وتل مس شواغلهم.

ثانيا، إن من المهم أن يحرص الدبلوماسي على التجوال في أنحاء البلد ومدنه، وأن يزور المواقع، فضلا عن التعرف إلى الجوانب المختلفة للمكان، والتأقل م على تقاليد أهل البلد وثقافاتهم.

ثالثا، إن من الأهمية بمكان أن يتعامل الدبلوماسي بذهن مفتوح، وألا يستعجل إطلاق الأحكام والوصول إلى الاستنتاجات، فضلا عن إبداء الاحترام للآخرين في جميع الأحوال والأوقات.

رابعا، إن على الدبلوماسي أن يتعرف على الصلة التي تربط بين بلده والبلد المضيف في الوقت الراهن وفي الماضي. غير أن عليه أيضا إقامة صلات وآفاق جديدة للمستقبل بغية تعزيز العلاقات ما بين البلدين. وتسهل هذه المهمة كثيرا بل وتصير أكثر إمتاعا بفضل معرفة لغة البلد المضيف وآدابه وثقافته.

ويكون الدبلوماسي أكثر فاعلية إذا ما تمكن من تص ور نفسه في موقف الطرف الآخر، أو إذا تمكّن من النظر إلى الموقف المعيّن من منظور الطرف الآخر.

ويساعد ذلك الفهم أيضا في أن يتعلم الدبلوماسي كيفية التعامل مع مشكلة أو مسألة ما. ولا تقل الطريقة التي ي قد م بها الاقتراح أهمية عن تعزيز موقف بعينه. أما العجز عن إدراك أهمية العلاقات الشخصية والاعتماد على أجندة ثابتة بدلا من ذلك، فليس مرجّحا لهما أن يؤدي إلى نتيجة إيجابية.

وإن من الأهمية بمكان بناء الثقة والسكينة وتأسيس المصالح المشتركة قبل إبداء أي موقف. وبالمثل، فإن الحديث العادي المألوف واستخدام الألفاظ التي اعتاد عليها الناس، وتناول المواضيع التي يجد الناس مصلحة متبادلة فيها أن يساعد كثيرا على تهيئة مناخ من الود والارتياح.

ومعرفة الدبلوماسي بالبلد الذي يعمل فيه وبأهله الذين يقيم بينهم تسّهل عمله أيضا. وإن من الطبيعة البشرية أن تأنس إلى من يبدي اهتماما بالمكان والناس الذين يعيش بينهم.

ويعني ذلك أنّ تقديم واجب العزاء وحضور المؤتمرات والمناسبات الرسمية وما إليها، ينبغي أن يعيرها الدبلوماسي اهتماما ووزناا طالما أنها ذات أهمية بالنسبة للشعب المضيف.

ويتعين على الدبلوماسي إبداء حسن النية مثل الرصيد المصرفي الذي ت ستخدم في لحظة ما. مثلا، بالحالات التي تحدث بها خلافات بين البلدين، ربما يكون من الضروري أن يبعث الدبلوماسي برسائل قد لا يوافق عليها الطرف الآخر. وقد يتعين على الدبلوماسي أحياناا أن يطلب أمرا لا يجد له استجابة من الطرف الآخر. وضمن ذلك قد يضطر الدبلوماسي إلى اتخاذ موقف ربما يكون موضع انتقاد لدى حكومة البلد المضيف.

تلك هي الحالات التي يتعين فيها على الدبلوماسي استخدام رصيده أو رأسماله السياسي الذي ادخره من قبل. وإنه لعون كبير له أن يكون قادرا على الانتقاد أو تقديم المشورة في الحالات التي يرى فيها البلد المضيف أن ذلك الدبلوماسي ينظر إلى المسألة المعينة بعين الصديق الذي يقدم النصيحة الخالصة أو يتخذ موقفا نقديا بناء.

وفيما لو لم يتمكن الدبلوماسي من أن يألف البلد الذي يعمل فيه ويتفهم ثقافة أهله ومزاجهم، أي أنه عجز عن بناء العلاقات الشخصية الوطيدة مع المسؤولين، فسيكون من الصعب جدا عليه أن يبعث برسائل غير مرغوب فيها.

ومثلما هو الحال في الحياة والأدب، للفكاهة دور مهم في العمل الدبلوماسي. وتاريخ الأدب العربي غني بروح الفكاهة والمرح. وأذكر أني كنت قد ترجمت بضع مقتطفات من أدب الجاحظ وأ عجبت بفراسته وبراعته الأدبية. ومع ذلك، فإن على الدبلوماسي توخي الحذر كل الحذر عند استخدام الفكاهة. فهناك شعوب ي عرف عنها روح المرح وتسحرها النكتة.
ومع ذلك، قد تبدو ذات النكتة جارحة بل وتشكل إهانة حين تصدر عن شخص أجنبي.

أستراليا ومغزى الهجرة والمكان

لا يمنحنا أدب الأمكنة الدروس عبر الحدود فحسب، وإنما يأخذنا إلى عمق الماضي والأزمنة. وإن لدور المكان في الأدب جذورا عميقة بين السكان الأستراليين الأصليين الذين ي عتقد أنهم قد امتدت بهم الإقامة في أستراليا لما يزيد على ٥٠ ألف عام. ويرتبط نظام معتقداتهم وأساطيرهم ارتباطا وثيقا بالأرض والمكان. فوراء كل بئر أو جبل أو كتل صخرية قصة أو حكاية ما. ولطالما سافر السكان الأستراليون الأصليون على امتداد طول البلاد وعرضها. وفي كل مرة يروون الحكاية ذاتها عن كيف أنشأ أسلافهم هذا المكان. وهم بذلك لا يحافظون على معرفتهم بمواقع توفر الماء والغذاء فحسب، بل أتاحت تلك القصص والحكايا التقاء عشائر شتى في مكان واحد لإقامة الشعائر الدينية والمناسبات الاجتماعية.

ومما يثير الاهتمام بوجه خاص، أن الأغاني التي يترنمون بها تصبح هي الأخرى خارطة ودليلا على جغرافيا المكان. ويمتد خيط هذه الأغنيات في أنحاء أستراليا كلها. وقد اعتقد السكان الأستراليين الأصليين أن من واجبهم أن يسلكوا الطرق نفسها التي سلكها أسلافهم. وتعمل تلك الدروب على حفظ الروابط بين مختلف القبائل والأسلاف. وإلى اليوم ما تزال الأرض مقدسة عندهم إلى حدٍ يستحيل على أي من الأشخاص ملكيتها. ذلك أن حقوق ملكية الأرض تؤول إلى أيدي القبيلة وحدها، التي يتعين عليها رعايتها حتى يتولى شؤونها الجيل التالي. لذا فإن الأرض في نظر السكان الأستراليين الأصليين الأوائل لا تنفصل عن الدين والتفاعل الاجتماعي والبقاء.

وبقدر اعتزاز الدبلوماسيين الأستراليين بتاريخهم وسيرة ماضي السكان الأصليين، فإن علينا أيضا أن نعكس وجه الحداثة في بلدنا.

وبالنسبة لأستراليا، فكم نحن فخورون بمجتمعنا المتعدد الثقافات. فما يقارب نسبة ٥٠ في المائة من المواطنين الأستراليين إما ولدوا خارج أستراليا، أو أن أحد آبائهم لم يكن مسقط رأسه في أستراليا. ولدينا جالية مزدهرة ومتنامية من السودانيين الأستراليين الذين يسهمون إسهاما مقدرا في حياة المجتمع الأسترالي وثقافته.

وبحكم إقامته الطويلة الممتدة لسنوات طويلة في المهجر، فإن الطيب صالح على إدراك تام بالتحديات التي تواجه المهاجرين، فضلا عن إدراكه للأثر الذي يتركه المهجر على الأفراد والجاليات المهاجرة. وفي ذلك، فقد حظيت أستراليا بقدر معقول من النجاح في اندماج المهاجرين وإعطائهم الشعور بالارتياح في وطنهم الجديد.

وما تزال أستراليا تعمل بجد لحفظ التوازن الضروري بين شعور المواطنين الجدد بالاعتزاز بوطنهم الأصلي، والوطن الجديد. ويتضمن ذلك الحرص على توزيع الوافدين من المهاجرين الجدد في شتى المجتمعات والجاليات كيلا تكون هناك مجتمعات معزولة أو "غيتوهات" من المهاجرين الجدد من نفس البلد لأن هذا قد يترتب عنه عدم اندماجهم في مجتمعهم ووطنهم الجديدين.

وتوفر الحكومة الأسترالية الرعاية المجانية للأطفال وتفتح الفصول لتعليم اللغة الإنجليزية للأطفال وآبائهم، فضلا عن ضمان توفر خدمات الترجمة الفورية المجانية عند تعاملهم مع أي مكتب حكومي، مثلا عند ملئهم الاستمارات والطلبات. وتواصل الحكومة أيضا ربط الأسر المهاجرة الجديدة بشبكات الدعم الاجتماعي مثل المساجد والكنائس والمعابد المحلية.
وفوق ذلك تموِّل الحكومة تشغيل المحطات الإذاعية الناطقة بلغات غالبية المهاجرين.

وبالنسبة للوافدين الجدد من المهاجرين السودانيين، فإن لأستراليا ميزة التشابه في حالات الطقس، وإن لم تكن حارقة كما عندكم هنا. وفي ذلك بعضٌ من أريحية الحياة، فضلا عن توفر الأطعمة العربية. ويمكن للمسلمين أيضا تسجيل أطفالهم في المدارس الإسلامية التي تموّلها الحكومة.

ومما تعلمته أيضا أن بوسع الأمكنة وال صد ف أن تغير حياة الناس نحو الأفضل. وقد حالفني الحظ بأن شهدت بنفسي قصة أسرة سودانية وصلت إلى مدينة ميلبورن قادمةا إليها من الخرطوم. وكانت تلك الأسرة قد سكنت في منزل ملاصِق لبيت حماتي التي نشأت في الريف الأسترالي ولم يتصادف لها أن التقت بأي من المواطنين الأفارقة. وكانت تلك الأسرة تتألف من ثلاثة أطفال دون سن الخامسة وأبوين يدرس كلاهما بالجامعة ليلتحقا بمهنة الطب.

وكانا يعملان لساعات طويلة وبتفان ملحوظ. وفي بداية الأمر لم تكن هناك إلا بضع كلمات قليلة تتبادلها حماتي مع جيرانها السودانيين من فوق الحصير الفاصل بين بيتيهما. ولكن رويدا رويدا، بدأت حماتي تلتقي بالأطفال فالتقطت أسماءهم وأصبحت تتحدث إليهم. ولذلك دعت الأسرة السودانية حماتي لتناول الطعام معها، ومن وقتها زالت الحواجز بينهما تماما.

وبعد بضعة أشهر بدأ الأطفال ينظرون إلى حماتي على أنها "حبوبتهم " التي ترعاهم في غياب والديهم، وأصبحت فردا من أفراد العائلة لدرجة أنها بقيت على تلك الحالة ولم ينقطع التواصل بينهما حتى بعد أن انتقلت تلك الأسرة إلى بيتها الجديد على الطرف الآخر من مدينة ميلبورن.

والشاهد أن المكان والبيئات الجديدة يمكّنان الناس من تجاوز هواجسهم وتصوراتهم السابقة عن الآخرين. ويساعد ذلك على خلق روابط اجتماعية جديدة بين الناس وخلق الشعور بالانتماء. غير أن ما يجب تأكيده مرة أخرى أنه لن يتسنى بناء تلك العلاقات ما بين الثقافات المختلفة بمجرد القراءة والاضطلاع على مزايا التواصل ما بين الثقافات، وإنما يجب على الإنسان أن يعيشها حقا في المكان والزمان المعيّنين.

ولا شك أن الطيب صالح، شأنه شأن الكثير من المهاجرين، مدركٌ لصعوبات وتحديات الاندماج في أوطان المهجر الجديدة. كيف وهوية الأفراد وتصوراتهم عن أنفسهم عادة ما ترتبط ارتباطا وثيقا بالمكان، سواء كان بلدة أو قرية أو مكان عمل ما، أو مدرسة أو جامعة. وتتشكل كينونة ذلك الفرد وتصوراته بفعل مشاهد ذلك المكان وروائحه والأصوات المرتبطة به. وضمن ذلك تعطي الأعراف والتقاليد نوعا من السياق وإيقاع الحياة الذي تألفه النفس وتطمئن إليه.

وفي ذلك يقول الطيب صالح في روايته الشهيرة موسم الهجرة إلى الشمال: "ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجا يذوب في دخيلتي، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس. ذاك دفء الحياة في العشيرة، فقدته زمانا في بلادٍ "تموت من البرد حيتانها".

فلا عجب أن تختفي فجأة تلك المعالم والركائز التي ألفها المهاجرين، بما فيها معالم المكان والأعراف والتقاليد الاجتماعية. وما أكثر التحديات التي تواجه المهاجرين وعائلاتهم في هذا الخصوص بالذات. ولا غر و أيضا أنّ صغار السن من المهاجرين هم الأسرع والأكثر قدرة على توطين أنفسهم واستبدال ذكرياتهم القديمة بالتجارب الحياتية الجديدة.

أما بالنسبة للكبار، فما أصعب الانتقال من ذلك العالم القديم الذي أَلِفوه بذكرياته. ففي بلد مثل أستراليا، تحلق الببغاوات وهي تصدر أصواتا صاخبة، وقد يثب حيوان الكانغارو عند الشروق أو وقت الفجر. وكذا للأشجار والأزهار ألوان وأشكال. وهناك أيضا تكثر العناكب والثعابين، بينما يختلف الطقس عما هو عليه في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، ما يتيح للسكان حرية وارتياح في أن يرتدوا ما يشاؤون من الملابس. وبالنسبة للمهاجرين المسلمين، فربما يكون في ذلك ما يخدش الحياء ولو إلى حين.

غير أن الكثير من المهاجرين يجدون من الأمكنة ما تألفها نفوسهم، سواء في المساجد أو الكنائس أو مراكز الجاليات أو المطاعم والمكتبات العامة والمقاهي.

ولا شك أن الكثير من المهاجرين يشد هم الحنين إلى وطنهم الأصلي الذي يعودون إليه لزيارة بيوتهم هناك واستعادة الارتباط الوجداني بتلك الأمكنة. ومع ذلك، يكاد جميعهم يعود في رحلته العكسية إلى موطنهم الجديد كما العصافير المهاجرة.

المكان ومكافحة التطرف

ومن شأن فهم المكان والثقافة أن يساعدا أيضا في وضع الاستراتيجيات الملائمة للعمل معا على مكافحة المتطرفين العنيفين الذين يريدون أن يلحقوا الضرر بمجتمعاتهم أو يزمعون السفر إلى الخارج للانضمام إلى الجماعات الإرهابية.

وهناك ظاهرة مثيرة للقلق تتمثل في شعور بعض أبناء المهاجرين الذين تمزقهم مشكلة الانتماء إلى ثقافة آبائهم وثقافة الوطن الجديد الذي هاجروا إليه، فيفقدون من جراء ذلك أي صلة لهم بالانتماء أو المكان. عندها قد يتملّكهم الغضب أو الشعور بالاغتراب الوجداني. ويترتب عن ذلك تدهور أدائهم الدراسي في غالب الأحيان، فيجنحون إلى العزلة. وهكذا ينتهي الحال بالقليل منهم إلى الوقوع فريسة للتطرف.

ومن المؤسف أن حوالي ٧٠ مواطنا أستراليا ي عت قد أنهم لقو حتفهم أثناء القتال في صفوف تنظيم داعش في سوريا والعراق في غضون السنوات القليلة الماضية. وينتمي الكثير من هؤلاء إلى الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين الأستراليين من البلدان العربية. ومن الطبيعي أن تدين الغالبية الساحقة من المسلمين الأستراليين البالغ عددهم ٥٠٠٠٠ مسلم ظاهرة التطرف هذه وأن تنبذها. وما برح القادة السياسيون والزعماء الدينيون يبحثون عن السبل الكفيلة بمنع الشباب من الجنسين من الانضمام إلى صفوف المتطرفين.

وبالرغم من ضرورة دحر الإرهاب عسكريا في الميدان، إلا أن ذلك ليس كافيا وحده للتغلب على الإرهاب والكشف عن نزعة الشر التي تستند إليها تلك الأفكار والمعتقدات. وبالتالي، فإن من الضروري أيضا أن ندعو إلى الوسطية واحترام الآخر.

وبصفتي دبلوماسيا، فقد تجولت في منطقة الشرق الأوسط والتقيت بالكثير من العلماء والمفكرين المسلمين، بما في ذلك هنا في السودان. وقد ساعدتني المحادثات التي أجريتها معهم على فهم الدور الهام الذي تؤديه الصوفية في نشر قيم التسامح والاحترام المتبادل والوئام والسلام الاجتماعي. ذلك أن الصوفية هي نقيض الرسالة التي يدعو إليها الإرهابيون والمتطرفون. وإن للصوفية في السودان تاريخا مديدا وحافلا لا شك.

بل إن للإسهام الإيجابي للصوفية في الدعوة إلى الوسطية خير مثال على كيفية التغلب على دعاة الكراهية والعنف. وقد أعانتني زياراتي إلى موالد الصوفيين و"نوباتهم" على فهم الدور

البالغ الأهمية الذي أدّته الصوفية في إقامة مجتمعات مسالمة ومتسامحة. وقد لفت نظري الشيء نفسه في مصر أثناء حضوري لبعض المحافل الصوفية الهامة، مثل مولد السيد البدوي في طنطا.

وتساعد الصوفية كثيرا، عبر تعزيز الشعور بالانتماء ونشر قيم التسامح والمحبة بين الناس، في منع المستضعفين من الانخداع للخطاب الإرهابي الذي يح ضهم حضاا على الكراهية والعنف والقتل.

الخاتمة

مثلما للمكان أهميته في الأدب، فإن له الأهمية ذاتها في السلك الدبلوماسي. فكلما كان الدبلوماسي أكثر تفهّما وشغفا واحتراما للبلد الذي يعمل فيه، كلما كان أكثر فعالية واقتداراا.

ولا تقتصر المسألة هنا على مجرد تعل م لغة ذلك البلد فحسب، بالرغم من أن ذلك يساعد كثيرا بطبيعة الحال. وهي لا تقتصر أيضا على مجرد الإلمام بأحوال البلد ومعرفته عن طريق الحصول على المعلومات ذات الصلة عبر شبكة الإنترنت. ذلك أن الحكمة تقتضي أن يعيش الإنسان التجربة بنفسه، أن يتأمل ثقافة الناس وأن يستمع إلى القصص والحكايا وعِب ر التاريخ ودروسه، أن يدرس الأدب ويتعلم التقاليد والعادات، وأن يساهم في حياة المجتمع الذي يعمل فيه وأن يتعلم منه.

صحيح أن للتكنولوجيا مزاياها وفوائدها، ولكن لا شيء يغني عن زيارة الأمكنة والالتقاء بالناس وبناء العلاقات الشخصية المباشرة معهم وجها لوجه.

وما أن يتمكن الدبلوماسي من إيجاد التفاهم المشترك، حتى تسهل عليه مهمة إقناع الآخرين وتعزيز الأفكار والسياسات التي يرمي إليها. ويساعد ذلك بدوره في تحديد الصلات المشتركة مع الآخرين.

ولعل الأهم من ذلك كله أنّ من شأن معرفة المكان والشغف به أن يجعلا رحلة الحياة أكثر متعة وإثارة للشعور بالرضا. فهما يشملان إقامة الصداقات الجديدة والتعرف إلى أمكنة جديدة وإثارة الاهتمامات والتأملات في شتى الثقافات والمجتمعات والشعوب.

ومن شأن معرفة كهذه أن تعزز الوعي بالنفس، وتساعد الأفراد على معرفة مكامن قوتهم وضعفهم. وقد حالفني الحظ كثيرا بأن أسهم الشرق الأوسط بتعدد أمكنته وآدابه وثقافاته وشعوبه في إثراء رحلة حياتي، وهو ما زال يثريها.

لقد كان الشاعر تي إس إليوت هو من عرّف الصلة بين المكان والتجربة الحياتية المباشرة عندما وصف ذلك شعرا بقوله:

"علينا ألّا نك ف عن الاكتشاف ولكن حين ننتهي منه سنعود إلى حيث انطلقنا بدايةا، ونتعرف على المكان للمرة الأولى".

www.sd.zain.com